الشيخ سليمان ظاهر

١٨٧٣ — ١٩٦٠

بقلم
جرجي ابراهيم نصر
بكاسين ، لبنان

هو من عائلة ظاهر ، المعروفة في عداد العائلات الكريمة في النبطية. وهذه العائلة فريق منها في النبطية ، وفريق في كفررمان . دخل في حداثة سنه مدرسة الحميدية في النبطية التي أسسها العلامة السيد حسن يوسف مكي المجتهد الكبير — وهي مدرسة دينية وعلمية وادبية ، وكانت على صورة مصغرة من الأزهر في مصر أو مدرسة المجتهدين في النجف الأشرف في العراق — فأظهر اجتهاداً ونبغ في العلوم الدينية والآداب ، وأخذ يكتب في بعض الجرائد والمجلات نثراً وشعراً ، فظهرت له مقالات قيمة وقصائد بليغة ، وأخرج عدة تآليف أدبية ودينية وعلمية وتاريخية وشعرية ، ولوفرة علمه وأدبه واعترافاً بسعة اطلاعه وتضلعه من اللغة العربية ، عينه المجمع العلمي العربي بدمشق عضواً فيه .

وكان ، رحمه الله ، ممن يوسم بالمكانة الأدبية في جيل عامل ، كما كان من خيرة المختصين في البحث التاريخي والأدبي واللغوي ، يتجرد عن ذكر الحوادث إلا التي تصدق روايتها ، ويصح ذكرها ، كما كان من الذين يوثق بتتبعاتهم ، وصحة أحاديثهم ، وقوة ثقافتهم ، ودقة ملاحظاتهم ، ويعتمد على سداده في صحة كل ما يكتبه ويرويه ، إلا أنه كان يكثر المترادف والمتقارب في اسلوبه الانشائي ، كالتضارب والتقاطع ، والتقارب والتحايب ، مع أن لكل من اللفظتين معنى واحداً ، وهذا دليل على الاسترسال ، وجموح القلم ، وسعة الاطلاع ، وغزارة المادة اللفظية ، وقد كان الفقيد يحرص بأن يعرف كشاعر مُجيد أكثر منه ككاتب بليغ ، بينما هو ، بعكس ذلك ،

كاتب من الطبقة الأولى وشاعر من الطبقة الثانية . ولعلّ ذلك من باب قول الشاعر : أحبّ شيء الى الانسان ما منعا .

وقد ربطتني به رابطة الأدب بالمراسلة. فجاد عليّ، رحمه الله ، ببضع رسائل تاريخية . ننشرها حفظاً لصيغتها وطابعها الأدبي. واعطاء فكرة عن طريقة الترسّل في جبل عامل من مشيخة العلم والادب فيه قال، رحمه الله:

الرسالة الاولى :

نخة من تاريخ النبطية

النبطيّة يردّد ذكرها تاريخ الحكم الاقطاعي في العهد التركي وولاية المعنيين والشهابيين . ووقع فيه عدّة حوادث مبسوطة في الكتب التاريخية التي كانت تدوّنها ومنها تاريخ الصفدي والأمير حيدر الشهابي وتاريخ سورية للمرحوم المطران يوسف الدبس وكل من عُنيَ بهذه الناحية التاريخية .

وكان موقعها الجغرافي وهي على بعد ثلاثين كيلومترًا عن صيداء قاعدة الولاة العثمانيين . وعن صور على بعد اربعين كيلومترًا . وعن مرجعيون التي كانت في حكم الشهابيّين نحو ٢٥ ك متراً ؛ وصلة الوصل بين هذه القواعد . وكانت صور في اكثر الأحيان في حكم آل الصغير الوائليين : وكانت النبطية احدى قواعد المقاطعات الثمان التي كانت موزّعة بين الحكام العامليين من آل الصغير وصعب ومنكر وبيد حكام النبطية من آل صعب كانت قلعة الشقيف التي تبعد عنها نحو سبع كيلومترات وسمّي باسم مقاطعة الشقيف. كل ذلك كان يجرّ عليها في أكثر الأحيان بلاء ذلك التطاحن بين الاقطاعيين فندع بحث ذلك اليكم واستقصاءه من مظانه الكثيرة التي هي تحت متناولكم .

ونذكر نخة من تاريخها الحديث الذي زال عنها فيه كابوس الأحكام الاقطاعية . ان للنبطية بنسب كثير من رجالات العلم في العصور التي كاد يكون فيها جبل عامل مدرسة ؛ وكانت المدرسة الأولى التي نشأت فيه وأفاضت النور على هذا القطر هي مدرسة جزين التي ازدهرت بعهد الإمام الشهيد محمد شمس الدين بن مكي وآبائه من قبل ؛ وكانت اليها الرحلة من الآفاق الأمامية ؛ ويمتدّ ذلك الى أكثر من ستمائة سنة ؛ وفي النبطية قامت معاهد للعلم كما قامت في كثير من القطر العاملي معاهد علمية .

والنبطية أول بلد نهض في العهد الجديد بسايرة ركب التعليم الجديد. وكان الفضل في انشاء اول مدرسة من هذا النوع للمرحوم رضا بك الصلح والد العبقري العظيم الشهيد رياض بك الصلح: وتشتت على هذه الخطة الرشيدة فكانت القدوة الحسنة لبلاد العاملية. والى مدرستها هاجر التعليم من مختلف انحائها قسم كبير تلقوا منها التعليم.

وكانت نفوسها الى سنة ١٩٢٣ لا تزيد عن ثلاثة آلاف: وهي تبلغ في هذا اليوم تسعة آلاف أو تزيد: وفيها ثلاث مدارس أميرية. اثنتان للذكور وواحدة للاناث. وهي أول ما عنيت بتعليم البنات. ولجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التي أسست منذ ستين عاماً مدرسة للذكور ومدرسة كبرى للاناث تسمى بمدرسة الزهراء. جميلة البناء. قائمة في أجمل موقع: تبلغ عدد تلميذاتها ثلاثمائة تلميذة: وفي كل عام يخرج منها العشرات من حاملات الشهادة الابتدائية: وفيها صف للشهادة التكميلية (البروفيه) وكانها تسير في التعليم على منهاج التعليم اللبناني.

وللمبشرين الاميركان مدرسة للاناث قائمة في الموقع الشرقي من النبطية. وتبلغ تلميذاتها زهاء (٢٥٠) وبالجملة فان عدد المتعلمين والمتعلمات يبلغ ربع نفوس ساكني البلد أو يزيد: وتكاد الأمية يزول شبحها منها.

أما حملة الشهادات العالية من هذا البلد سواء أكان في الطب أم في المحاماة أم في السياسة أم في التعليم أم في الزراعة وشهادات التعليم والابتدائية والتكميلية فتبلغ المئات: ومن النبطية أول حائز على شهادة التربية والتعليم من مدارس الاستانة في العهد العثماني هو المرحوم رشيد حكمت فياض المتوفى قتيلاً في دمشق.

وأول مخترع لبناني متفوق المرحوم حسن كامل الصباح صاحب سبعة وخمسين اختراعاً مسجلاً في الولايات المتحدة: وفيها الكتاب والشعراء واللغويون والمؤلفون ورجال الدين البارزون: وهي في هذه الناحية سائرة بخطى واسعة ضاربة الرقم القياسي بالبعثات العلمية الى المعاهد الاميركية والافرنسية.

والنبطية تجاري مثيلتها جداً ومركز زراعي وخاصة في زراعة التبغ التركي الذي هو بلد لبناني عني في زراعته واستخراج أجود أصنافه: والمنتوج منه في كل عام لا يقل عن مئة الف كيلو، وعن النبطية أخذت أصول زراعته وتجويدها اكثر البلاد العاملية: ولو وزعت زراعته توزيعاً عادلاً وحمي من مزاحمة التبغ الاجنبي، لكان لهذه البلاد الجبلية منه أضخم مورد ينهض بالبلاد اقتصادياً ويقلل من الهجرة التي كادت تخليه من العاملين.

والنبطية منقسمة الى أربعة احياء . حيّ البيّاض وهو غربي البلد . وحيّ السراي وهو الى جنوبها . وحيّ الميدان وهو الى الشرق وكذلك حيّ المسيحيين.

وجلّ المسيحيين انتقلوا اليها واستوطنوها في حوادث السنين وهم ومسلموها على أتمّ وفاق ولم يقع بينهم خلاف قطّ .

وفيها نهضة عمرانية رائعة وفي أبنيتها الجديدة سواء أكانت في الدور الحديثة الجديدة ام البيوت التجارية ما لا يقلّ روعة عن أبنية بيروت وصيداء. وزاد في تحسين مستواها العمرانيّ توسيع شارعها الكبير (البولفار) الذي يصلها من الشمال بصيداء ومن الشرق بمرجعيون ويصلها بصور طريق معبّد .

وان المنفصل الكبير يبلوغها هذا المستوى العمراني يرجع الى الزعيم يوسف بك الزين المعروف بجرّه المياه نبعة النطاسة الصافية المعصومة من الجراثيم .

وأنشئت فيها البساتين والحدائق حتى أصبحت مصيفاً بحق لو شملتها عناية الحكومة فأدرجتها في محلّ مصايفها .

وفي النبطية دارٌ للحكومة أنشئت منذ ثمانين سنة في عهد مديرية المرحوم رضا بك الصلح .

وفيها محكمتان عدلية وحاكمها حاكم منفرد ؛ وشرعية جعفرية . ومخفر للدرك ومركز للتلفون وتنار بالكهرباء . وفيها سوق عامة تقام كل يوم اثنين من الاسبوع . وفيها دائرة للبلدية وتقوم في هذه الأيام بمهام عمرانية تُشكر عليها .

وفيها مركز للبريد والتلغراف وموظّف للنفوس ، وألغيت مديريتها في عهد وزارة المرحوم ادّه . ويطالب سكّانها اليوم بتأليف قائمقامية فيها وهي أحوج اليها في هذه الأيام لمركزها العمراني الخطير .

وفي النبطية من المعابد الدينية المسجد الكبير والحسينية ومسجدان وللروم الكاثوليك كنيسة .

وفي النبطية عضوان في المجمع العلمي العربي بدمشق الاستاذ اللغوي الشيخ أحمد رضا وهذا العاجز سليمان ظاهر .

أمّا قلعة الشقيف فيمكنكم مراجعة ما كتبته عنها في المجلد الثالث والعشرين أو الرابع والعشرين من مجلة المجمع العلمي العربي أو تاريخها المفصّل المنشور في المجلد السادس من مجلة العرفان الصيداوية ، هذا ما اتّسع لي المجال من كتابة ما تفضّلتم بتكليفي به من تاريخ النبطية، وانا في حالة انحراف صحّي حالت دون الافاضة فيه وحسبكم من القلادة ما أحاط

بالجيد : وانني على كل حال شاكر لكم حسن صنيعكم بوضعكم تاريخاً لجزين وجبل عامل ؛ وجزين جزء منه لا يتجزأ وهو البلد الذي يفتخر فيه ويتمنى له كل رقي وازدهار .

وفي الختام أثني على ظنكم الجميل بي متخذاً الفرصة لتحيتكم تحية الاعتراف بعملكم المبرور وتفضلوا بقبول أسمى الاحترام .

النبطية ٢١ نيسان سنة ١٩٥٢ سليمان ظاهر

الرسالة الثانية وقد ضمنها كلمة عن جزين

النبطية – الجنوب – ٢٨ آب سنة ١٩٥٨

حضرة الكاتب الالمعي المفضال الاستاذ جرجي نصر المحترم أعزه الله.

أما بعد التحية والاحترام فقد آنسني كتابكم الكريم يحمل اليّ من حسن ظنكم وكرم عنصركم وأدبكم الرائع ما أعجز عن مكافأته ومقابلته بما يستحق من الاعجاب والاكبار ؛ فأقتصر على الدعاء لكم بالتوفيق .

اما ما ندبتموني اليه من كتابة ما عثرت عليه من تاريخ بلدكم الراقي لاهتمامكم بوضع تاريخ له وفاء بحق وطنكم ؛ فقد عزّ عليّ بعد أن راجعت اضبارات قيدت بها منذ السنين الطوال ما يتصل بتاريخ جبل عامل ومنه جزين وتوابعها ؛ أن لا أجد منه ضالتكم المنشودة وهذا هو سبب ارجائي الجواب الى اليوم ، وترون طيه كلمة عن جزين موجزة وتاريخ قلعة الشقيف أقدمه هدية لحضرتكم مقدراً في الختام قيمة جهودكم مستمداً لكم منه تعالى العون والتوفيق مع قبول الاحترام .

الداعي
سليمان ظاهر

ثم يعلق على الكتاب الحاشية التالية :

أما ما يتعلق بتاريخ بلدكم الناهض (بكاسين) فلم أعثر على شيء يتعلق به والمكتبة العاملية مما حوت من نفائس المؤلفات العاملية على اختلاف فنونها فقد جعل جلها (الجزار) وقوداً لأفران عكاه ؛ ويروي بعض سلفنا أنها أغنتها عن الوقود مدة سبعة أيام ، وبذلك ذهب جل ما يمكن ان يتخذ مصدراً لتاريخ جبل عامل ، واننا من نحو سبعين عاماً أي مدة ابصارنا النور ، تبحث عما استبقت عليه تلك الأيام المظلمة من تتف هنا

وهناك ما مساس بذلك التاريخ الحافل في الشؤون والشجون ، وفي هذه الآونة القريبة عثرتُ في مكتبة الحاج ابرهيم الزين في بناية ثابت في بيروت على كتاب (الحركات في لبنان) مؤلفه من اخواننا الدروز (يوسف خطار) ذكر بلدكم الطيّب في عدة صفحات .

وأمّا وطنيكم الخالد الذكر المرحوم الطبب شاكر الخوري فلم أجده عرض لتاريخ مسقط رأسه وأوّل ارض مسّ جسمه ترابها في كتابه « مجمع المسرات » سامحه الله .

جزين وتوابعها

من مساكن الشيعة الأمامية وهي معدودة في جبل عامل الذي كان بلدًا شيعياً صرفاً والتشيّع فيه قديم يمتدّ الى عهد عثمان بن عفّان الخليفة الثالث والتائم في نشره في هذه الرقعة من بلاد الشام (أو سورية) الصحابي أبو ذرّ الغفاري وقد نفاه اليها عثمان .

وهذا تحديده الجغرافي وموقعه كما هو معروف في الجانب الغربي من بلاد الشام حيث نهر الفراديس (الأولي) شمالي صيداء شمالاً وما يحازيه من مجراه الى تومات نيحا وما وراءها في سفح جبلها الشامخ من مشغرة شرقاً ممتدًا جنوباً على الضفّة الغربية من الليطاني الى جسر (برغز) متّجياً الليطاني منه الى الغرب ومنعطفاً الى الجنوب حيث يمرّ في « طمره » وتحت قلعة شقيف أرنون وملتوياً بعد قطعه منتهى الذروة التائمة عليها الى الغرب من الناصية بميلة الى الغرب شاملاً مرج عيون الى باب التنّية ومجرى الحاصباني ومنها منعطفاً الى الغرب الى ما يحاذي قرية الخالصة من الحولة خارجاً منه وادي الأردن منتهياً غرباً بما يحازي الملاحة حيث يفصله عن طبرية وصفد الوادي المعروف بوادي الغارة ومن نهر الأولي الى الزيب (اكزيب) وضواحي عكاء جنوباً وما يحاذيها الى وادي الأردن والملاحة شرقاً .

في هذا الجانب بقعة من الأرض تكاد تكون لولا ساحل صيداء وسهول الغازية وسهل صور وطمره وخيام مرج عيون تكون سلسلة جبال ويبلغ طولها زهاء ثلاثين ميلاً وضيقاً بعرض يتراوح بين ٢٤ ميلاً و١٥ تقريباً مما يبلغ مربعه ٣٦٠ ميلاً .

هذه البقعة هي جبل عامل أو عاملة أو جبال عاملة أو جبل الجليل أو الخليل . هذا تحديد جبل عامل الطبيعي لا السياسي وقد عدّ ياقوت الحموي

في معجمه (صفد) الفلسطينية منه ، وتوسّع الشيخ محمد الحرّ العاملي الجبعي في كتابه « أمل الآمل » حيث أخذ به بعلبك وكرك نوح من أعمال البقاع .

وهناك أقاويل لكثير من الجغرافيين قديماً وحديثاً في تحديد هذا الجبل عرضنا لها في كتابنا (تاريخ جبل عامل) الذي لم يتهيأ لنا طبعه فلا يسعنا التعرّض لها بهذه الكلمة الموجزة .

وكانت كل الأقاليم المعدودة من جبل عامل مساكن للشيعة ومنها جزين وما يتصل بها من القرى وكان لها حكّام منهم . يقول جودت باشا في كتابه « تاريخ الدولة العثمانية » : وفي الجهة الغربية (من لبنان) كان من هذا القبيل (الحكم الطائفي) مقدّمو جزين أصحاب رفعة شأن ولكن لمّا سقطوا بعد ذلك عن مرتبتهم ومنزلتهم صارت قريتهم (جزين) لقباً لهم وصاروا يعرفون بمقدّمي جزين .

وهؤلاء المقدّمون من سكّان جزين القدماء ، وبعد تغلّب الحكم الاقطاعي الذي بلغ الذروة في عهد الاقطاعيين الجنبلاطيين والمعنيين والشهابيين في الجبل اللبناني وغيره من ديار الشام ، أخذ حكمهم ينتقص من سائر أطرافه الى ان قضي عليه وانجلى عنه أهلوه ، وذلك الحكم المقيت كان قائماً على التنافر وابتعاد جذوته بين ابناء أديانه وملله ، فخلت جزين من السكّان الشيعيّين حوالى سنة ١٢٥٥ هـ. ١٨٣١ م وتفرّقوا في مختلف البلاد العاملية الجنوبية والشمالية وبعض قرى لبنان ، ولكن بعض القرى التابعة لجزّين أمنت من الجلاء من ساكنها كغرمتي والريحان ومليخ واللويزة وكفرحونة .

المعاهد العلمية في جزين وجبل عامل

العلم ونشره واشادة معاهده ولائد الأمن واستتابه . وفي غفلة من الأيام واضطهاد الحكّام كاد يكون اول بلدة شيّدت دعائمه في جبل عاملة مدرسة جزين ، وكانت لهذا البلد شهرته الواسعة ومكانته العلمية في نفوس الشيعة في مختلف أقطارهم واليك شاهداً عليه .

ان بعض شيوخ علماء جبل عامل الشيخ جمال الدين بن الحسام ابي الغيث العاملي كان حياً سنة ٦٦٩ هـ ١٢٩٩ م كان فاضلاً شاعراً من أهل أواخر المائة السابقة .

ذكره الذهبي في مختصر تاريخ الاسلام فيما حكي عنه في اثناء ترجمته .

أبو القاسم بن الحسين بن العود الأسدي الحلي الحلبي. فقال عن أبي القاسم المذكور : انه لمّا مات في جزين رثـاه ابرهيم بن الحسام أبي الغيث بأبيات أولها :

عرّج بجزينَ يا مستبعد النجف ... فتفضل من حلّها يا صاح شبرخفي

وعن أبي ذرّ في كنوز الذهب في تاريخ حلب عند كلامه على مدرسة ابن النقيب انه قال : لمّا توفي ابو القاسم المذكور رثاه الجمال ابراهيم العاملي فقال :

عرّج بجزينَ يا مستبعد النجف ... فتفضل من حلّها يا صاح شبرخفي
نور ثوى في ثراها فاستنار بـه ... وأصبح التّرب منها معدن الشرف
فلا تلومنّ ان خضّم علـى كبدي ... صبراً ولو انبـا ذابت من اللهف
لمثل يومك كان الدمع مدّخـراً ... بالله يا مقلتي سحّي ولا تقفـي
لا تحسبنّ جود دمعي بالبكا سرفاً ... بل شُحّ عيني محسوب من السرف

قال وهي أكثر من هذه الأبيات. ولمّا بلغت هذه الأبيات جمال الدين محمد بن يحيى بن مبارك الحمصي وهو من أكابر أهل مذهبهم قال راداً على ناظمها :

أرى تجاوز حدّ الكفر والسرف ... من قاس مقبرة ابن العود بالنجف

وأكبر عالم نشأ في جزين وبذل قصارى اهتمامه في مدرستها الكبرى وحوّل اليها الرحلة حتى عن مدارس العراق من كثير من الأقطار الأمامية الإمام الشهيد ابو عبدالله محمد بن جمال الدين مكي بن شمس الدين محمد العاملي الجزّيني المستشهد ظلماً وعدواناً بوشايات مثيرة للعصبيات المذهبية في ذلك العصر المظلم : وبعيد حبسه بقلعة دمشق في عهد دولة بيدمير وسلطنة برقوق. قتل سنة ٧٨٦ هـ ١٣٨٤ م قتلاً بالسيف ثم بالرجم فالاحراق. ولكن ذلك المعهد العلميّ لم يزل سالكاً طريقته المثلى في نشر العلوم المعروفة على اختلاف فنونها : وبهذا الإمام عقب يعرف بلقب شمس الدين تفرّقوا بعد استفحال الحوادث الناشبة عن الحكم الاقطاعيّ في مختلف الأقطار وفي كثير من قرى البشارتين الشمالية والجنوبية من جبل عامل وفي العراق وايران وحلب : ولم تنقطع منهم سلسلة العلم والأدب الى يومنا هذا.

هذه لمحة خاطفة من تاريخ جبل عامل وجغرافيته ممّا اتّسع لها وقتنا الحافل بالمشاغل.